فجيعة البشر في «الصخب والعنف»

بقلم صافي الراهب

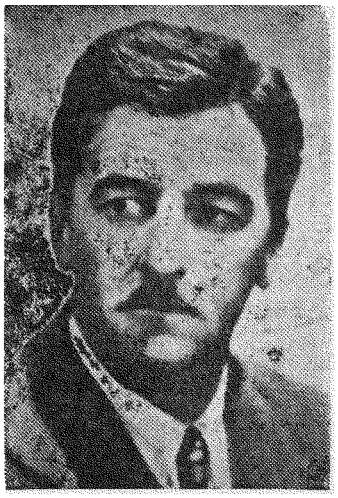

« فوكنر »

(١)

ربما كان الحديث عن الناحية الفنية في « الصخب والعنف » لازما قبل الدخول الى معبد الفجيعة الذي تجري فيه . يقول فوكنر « لقد كتبتها خمس مرات مختلفة محاولا ان اروي القصة » وعن هذه الكتابة يقول الناقد الامريكي كارفل كولينز « تقدم (الصخب والعنف) خصوصيات اسلوبية ومضمونية تجعلها على التعيين بلا معنى ما لم تقرأ بالاعتماد على نظرية الرؤية الداخلية الفرويدية » . انها مكتوبة بحيث اذا حاولت سردها مرة ثانية ، يقول جان بول سارتر ، « تشعر انك انما تروي شيئا اخر » منفصلا ، حدث وانتهى .

يروي القصة اربعة اشخاص، كل يتحدث في يوم. واول المتحدثين بنجي. وهو يبدأ بسرد حوادث يومه — ٧ نيسان ، يوم فصح وسبت — وذكرياته التي تمتد من ١٨٩٨ الى ١٩٢٨ ، مبتدئة حسب التسلسل الزمني بوفاة الجدة (تاتا) . وفي حوالي الثامنة صباحا يبدأ القسم الثاني في ٢ حزيران ١٩١٠ وينتهي في الحادية عشرة والربع ، راويا بلسان كوينتن المزيد من الذكريات او مكررا بعضها ، وراويا حوادث يومه الذي ينتحر في الثانية عشرة منه . ويلتقط الحبل في القسم الثالث جيسون ، فيطلعنا هو الاخر على ما يهمه من الذكريات مخبرا في نفس الوقت حوادث يومه بوضوح اميز مما هو في الفصلين السابقين . ولكي نحصل على القصة كاملة علينا ان نجمع الحوادث ونعيد بناءها في الذهن ، مستغرقة ثلاثة اجيال . وربما كان البحث عن ارتباط الوقائع ببعضها وتلاحمها عن طريق العرض الروائي ، نوعا من اضاعة الوقت . ان فوكنر يقدم هنا فنا نقيضا الى آخر حد ممكن للفن الروائي المعروف ، ومتمما في نفس الوقت للتراث الامريكي في الرواية. ولقد استطاع بذلك ان يروي من خلال هذه الصفحات القليلة قصة البشرية ممثلة بأسرة كومبسون . والتقنية التي صاغها فوكنر فأبدع هي تيار الوعي : نحن دائما في ذهن الراوي ، وشخصيته تلون بطابعها الخاص كل الاحداث دون ان تفقدها معناها الحقيقي . ولا يخلو تداعي الذكريات من توجيه ذكي حاذق غير بين لسردها مرتبة عبر الزمن ، انما تقطعها حوادث اليوم او الذكرى المستجدة التي تثيرها نأمة او رائحة والتي كتبت بنوع آخر من الطباعة. ولكي نحدد الزمن الذي تمتد فيه الوقائع وضع فوكنر بعض التعيينات . فعندما يرد اسم (فرش) مع الذكرى — واسمه دائما معها — يكون في عهد الطفولة الاول ، فعرش هو ابن دلزي البكر ، وربما كان اصغر من كوينتن بقليل . واذا ما ورد اسم (ت ب) فنحن في عهد الحداثة واليفوعة . اما عندما يرد اسم (لستر) فنحن غالبا في اليوم الذي يعلو الفصل او ، احيانا ، في حادث متذكر ما بين ١٩١٧ و ١٩٢٨ . اما الحوادث الاهم التي تعكس ظلا شعوريا معينا على كل شخصية فيبدأ بالبقرة ناسي التي تركت في حفرة لتسلخ جلدها البزاة . وننتقل بعد ذلك بقليل الى موت الجدة (تاتا) عام ١٨٩٨ ، فالى اعادة تسميه بنجي ، فالى سروال نادي الموحل . وياتي بعد هذا زواج نادى من هربرت ريد عام ١٩١٠ ، فانتحار كوينتن ، ثم الى طلاق نادى وارسالها ابنتها الى البيت عام ١٩١١ . يموت الاب عام ١٩١٢ . يخصي جيسون بنجي عام ١٩١٣ . تهرب الفتاة كوينتن بنقود جيسون عام ١٩٢٨ مع عامل مسرح متجول .

اما القسم الرابع فهو بين يدي فوكنر ، وفيه يجري سرد الحوادث مجرى روائيا مألوفا . ولاول مرة نعرف ان عيني بنجي زرقاوان وان السيدة كومبسون ترتدي الاسود وان دلزي تسكن في قمرة مفردة وتلبس كل ثيابها في عيد الفصح فقط . كما نعرف ان في المطبخ ساعة مخطئة باستمرار ربما نظرت اليها دلزي بين الحين والحين لتعاين لنفسها الوقت الذي غالبا ما يكون مخطئا عدة ساعات.

وعندما ينتهي القارىء من الصفحة الاخيرة يحس ان حول راسه طبلا به صخب وعنف ، لكن صوته ما يلبث ان ينجلي رويدا لتندرج الوقائع والذكريات في الذهن، وتتخذ مكانا ممنطقا معقولا في الخيال . وهنا تبدأ مهمة القراءة الثانية — التي لم ينج منها احد — في الكشف عن المعنى المبطن في الرواية وعن الرموز المنثورة بقوة وعمق وكثرة . لقد لجأ فوكنر في كتابة الرواية الى فوضتها ، اذا صح التعبير ، لكنه قدمها كما هي الحياة : ان الفوضى صميمها، والتفسخ نسغها ، والانكفاءات النفسية نحو الماضي اهم ظواهرها كوسيلة يهرب الانسان بها من انهياره في الحاضر.

ان للقصة جذورا تضرب في ارض التاريخ عميقة ثخينة ، وتمتص من تربته مصل الحياة السام ، الذي نفسه كان معطى التمزق الجبري عند الاسرة . وهو يتزايد في

الابناء اكثر مما يتزايد في الاباء : ويفعل ذلك في الاحفاد اكثر من الجميع : انها لعنة الزمن . كوينتن بالذات وليس شخصا آخر ، ذلك الذي ينتحر وقد وصلت النكبة في شخصيته نقطة المنظور المتعارف عليها في الرسم . وكادى ملعونة وتعرف ذلك ، « قبلت قدرها دون ان تبحث عنه او تهرب منه » . اما جيسون فالممثل الاخير الوحيد الذي بقي للبشر . وبنجي ولد معتوها . الاقاصي سمة الرواية ، وترمومتر التوتر في الشخصية عبر الزمان والمكان يشير باستمرار الى نهاية عظمى . ويحدثنا فوكنر عنها منذ البداءات الاولى للتفسخ الحياتي الذي شل في النهاية انسانيتها ، ويصل هكذا ابناء الجحيم بأسلافهم . فأيكموطب منح «ميلا مربعا اصم من قذارة شمال المسيسبي العذراء» . ووقع المنحة مرة اخرى جاكسون ، الاب الابيض العظيم الذي تعلق بالشرف تعلقه باناه . وبالطبع فأن الميل الممنوح هو بيت كومبسون وملحقاته ، وقد عاش هناك كوينتن وكادى وجيسون وبنجي ، ابطال قصتنا .

ويكشف سلوك بقية افراد الملحق ، وهم من الكومبسون عن ذلك الرشيم الملوث الملعون من كبرياء الارادة وصغار النفس المكتسب وعدم الرضوخ المطلق للوضع الراهن ، وما يتبعه من نهايات فاجعة .

(٢)

وننتقل الى القصة وبنجي يروي اول فصولها . انه يرويها ببراءة وبلا تعليق : بدا جيسن في جبيبه ، بقعة الوحل على مؤخرة كادي ، كونتن يضرب كادي لانها لم تطعمه ، ويعفر وجهها بالعشب لانها سمحت للاطفال بتقبيلها . انه نثرات الفضة التي تعطينا الحوادث مباشرة ومجردة وبحد ذاتها . ونراه خلال الفصل كله يعيش في الحاضر متزودا بالماضي ، ويستعيد الماضي بحافز من الحاضر ، وعقله المعتوه يلتقط التقاطا حسيا بحتا كل مظاهر الحياة ، مختلطا بالذكريات الواعية وغير الواعية . ويرتسم بنجي في النهاية فأذا به شخصية من اشهر شخصيات العته في الادب . واما القصة التي يروي فمليئة بالصخب والعنف ودلالتها الوحيدة هي الفجيعة والتمزق وانفصال الانسان الابدي عن الوجود .

اول الذكريات التي تطرأ على ذهن بنجي تكون كادى محورها . ثم ننتقل الى ليلة شتوية من عهد طفولته ، يبدو فيها التلقي الحسي واضحا . وتدخل كادي المشهد راقصة كفراشة (وحمالة كتبها تتراوح وتنط حولها) وينكشف لنا جليا حب بنجي لكادي : انها جزء من عالمه الثابت ، وهو يحاول دائما ان يخبرها شيئا . ويتذكر بعد ذلك زيارة للمقبرة تكشف عن شخصية امه القدرية المترددة المائعة ، الابدية الخوف من شيء لا يقع ، ويعود الى حاضره حين يطل جيسن فيتحدث عن المال . ثم تطير كادي كملاك مجنح ذي وشاح وردي ، فنعرف انها تزوجت . ويترك ابتعادها عند بنجي شوقا غامضا تحول الى غريزة جنسية ، جعلته يتربص بفتيات المدرسة ويحاول الاعتداء على واحدة منهن .

لبنجي اذن الحركة الاولى . انه البدائية المطلقة . وهو « في الثالثة منذ ثلاثين عاما » ، آدم قبل السقوط ، والمسيح مصلوبا منذ ولادته . وحتى اسمه يربطه بالاساطير الدينية التي تصور الانبياء عمالقة يحملون تبعة الانسان والزمن والحضارة : فبنجامين هو الابن الاصغر ليعقوب واخو يوسف ، و « بنجامين اصغر ابنائنا بيع في مصر » .

وولادته معتوها اول مظهر من مظاهر النكبة . ذلك ان صلة ما بينه وبين العالم مستحيلة . وربما اضطرمت نفسه بنوازع هائلة لا يستطيع لها الا البكاء والحمحمة . انه نقمة على نفسه ، ووجوده بالذات وبهذه الكيفية المريعة سبب عذابه الابدي . وهو عقاب سماوي لامه ومعاشي لجيسن ، ومسئولية محزنة لكادي ، وقضية غير معقولة وشديدة الضغط بالنسبة لحساسية كوينتن ، وهو بعد ظل كريه يعكر صفو كونتن الانثى . ويتكون عالمه المرتوج الخفي عن كل من عاشره من ثلاثة اشياء احبها : كادي والمرعى والنار ، ومن ثلاثة اشياء تمتع بها : المرآة والنوم والاشكال الوضيئة . وكلها مختلط برائحة التراب والاعشاب والشجر ، بنداوة الجو وارتشاق الماء والفراشات ، بغابات الطبيعة البشرية وقصور الحواس . وهذا هو كل عالمه . اما بالنسبة للاخرين فهو مثل كلمة بالنسبة للغة ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة . وتكاد تكون علاقته بكادي العلاقة الاعمق والاصدق والاكثر تأثيرا عليه ، فهو يرفض ان ينام ما لم تنم معه ، وهو يرفض ان يراها مع (تشارلي) فتلك الرؤية توقظ فيه احساسه بالخسران ، وهو يرفض ان يشم رائحة العطر عليها فهذا يشعره بأنها تغيره ، والتغير يحمل النكبة له . وعندما تتورط فتلوث ثيابها تعلن انها ستذهب فلا تعود ، ويبكي لذلك بنجي فورا ، وعندما تضع العطر في قارورة يجذب بثوبها حتى تضطر لاعطائها لدلزي ، ذلك انها لم تعد تعبق كالاشجار . وقد أكنت كادي له حبا حقيقيا ، يشبه العطف ، دفعها قبيل زواجها لان تطلب من كونتن بألحاح «اتعتزم الاعتناء ببنجي وأبي ؟» . وكان بنجي يحس هذا عندما يراها . وعندما تتزوج وتغيب عنه لا يشعر بشيء ، فهو اعجز من ان يعي نزعاته . لكن كلمة

مكتبة انطوان

صدر حديثا

حقائق لبنانية

الجزء الثالث والاخير

تاليف فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية السابق

الشيخ بشارة الخوري

الموزعون : مكتبات انطوان

كادي من لستر أو تب عندما يفتاظ أحدهما منه تجعله يخور ويجمجم ويريل ، انه يتذكر بذلك ان شيئا ما قد اختفى من عالمه فلم يعد ثمة عبق كالاعشاب أو كالمطر . وبزوال كادي تزول من عالمه التسرية والمحبة وساعات الهدوء والراحة .

ولم يكن بنجي يحب المرعى الا بمقدار ما يهيء له من تهدئة وانسجام . واذ وجد نفسه مضطرا للوقوف عند السياج والتطلع اليهم « ينقفون » احس بالخسران عن طريق المنح وكان هذا يكفي ليريل ويبكي . ان المرعى هو الفقدان مجسما ، وهو ككل شيء اخر نوع من الصلب الذي يزداد صخبا وعنفا بازدياد عمر بنجي. وعند المرعى يحس بنجي بنظرات الاخرين التي تمتزج شفقتها بنوع من الهزء المتعالي والرفض . « يظنون انه لا يليق بكنيسة بيضاء، وان كنيسة زنجية لا تليق به » الا انه « ابن الرب الطيب » ، ابن هذا النوع الغشاش اللامجدي من الايمان بان ثمة ربا طيبا في زمن اصبح كل فرد فيه رب نفسه وجحيمها

ويعيش بنجي بعد ذاك بحالة سلب متزايد ، اذ ينتحر كونتن وقد كان يسليه بمحض وجوده ، وتتزوج كادي ، ويموت ابوه ، ويخصى ، ويحس بمقت جيسن له وبافتعال مواقف الحب من امه . وفي الثالثة والثلاثين ــ وهو عمر المسيح يوم صلب ــ يكون قد فقد كل شيء وبدأ يقص قصته بصيغة الفعل الماضي. وفي الفصل الرابع يصل الصخب والعنف الى اقصى توترهما عندما يقفز جيسن على العربة التي كانت تقله مع دلزي ولستر ، فيضرب لستر وتستدير العربة الى « اليسار » لتقوده . وزمجر صوت بن وزمجر .. وتدحرجت الزهرة المكسوة فوق قبضة بن، وكانت عيناه فارغتين هادئتين زرقاوين ثانية ، اما الزهرة المكسورة فهي زهرة العليق التي تدعى بوق الملائكة . اما النهاية ففي مصح جاكسون : انه قد تم صلبه حتى الموت .

ــ ٣ ــ

يستقطب كونتن الانتباه لاول مرة عشية موت الجدة « تاتا » ، اذ تتحرك عروقه بدافع الوشائج الرحمية عندما يسمع صراخها . وفيما تطعم كادي بنجي، ويجلس جيسون بلا اهتمام ، يصيح هو « انها تاتا . كانت تصرخ » وتقول كادي « احدهم كان يغني . اليس كذلك ، دلزي ؟ » ثم تشتكي بعد قليل من ان كونتن لا يأكل عشاءه ولا يعنى بها. ولا يهتم كونتن لها البتة ، بل يستمر طيلة تلك الليلة في صياحه « انها تاتا . كانت تصرخ » .

ثم يروى لنا بنجي في ذكرى ثانية ان كونتن صفع كادي لانها عصيت اوامره فرمت ثوبها ونزلت في ماء التغصينة ولوثت مؤخرتها بالوحل . ويحكي ايضا كيف تراشقا فابتلا معا ، وكيف رفض كونتن عند العودة ان يأتي البيت قبل ان تجف ثيابه فيما فعلت ذلك كادي بلا مبالاة عجيبة . وفي مكان اخر يذكر بنجي ان كونتن عفر وجه كادي بالتراب ، وكانت هي تضحك بينما كان هو في منتهى جديته .

ومن بنجي ايضا نعرف ان كونتن تشاجر مع احد التلاميذ ليمنعه من وضع ضفدعة في مقعد احدى الفتيات. ويردد ابو كونتن «ولكن من ابن له ضفدعة في تشرين الاول؟» ويجيب كونتن « لا اعلم ، يا سيدي . »

ونلمح من خلال تساؤلات الاب الفخورة ، واجابات الابن المهذبة المطلقة الطاعة نوعا من العلاقة التي انتشرت في الزمن الغابر في الاسرة الابوية ، يعتبر الاب عندهم قدوة ومثلا اعلى ، ويعتبر الابن ، وبخاصة الابن البكر ، وريثا شرعيا له . ولا يكتفي فوكنر بمشهد واحد ليصف تلك العلاقة بل يستعرض ايضا سهرة عائلية يتهكم فيها الاب على اخي زوجته موري ، العازب الانيق المتوهج العاطل ، فنلمح عند كونتن تلك الموافقة الصامتة المعجبة الظاهرة التي تشجع الاب في موقفه وتزيده فخرا ، كما نلمح ذلك التيار الخفي من الازدراء الشعوري والعقلي للخال ، متسايرا مع تيار شعوري محض من تعالي الرفض الموجه نحو امه بطريقة متسترة ذكية .

ويكبر الطفل الذي يرفض الذنب والكذب معا فيجلس بحذاء التغصينة الى أن يجف ثوبه فلا يعود مذنبا ويضطر للتبرير ، ويصبح فتى يافعا ، فنلتقي به مع قضية دالتون ايمز . يرفض كونتن ان يفتض بكارة اخته شخص مثل ايمز . وهكذا يحاول هو ان يقوم بهذا العمل . « سأجعلك تقولين اننا فعلنا ، انا اقوى منك ، سأجعلك تعرفين انا فعلنا . ويحاول ان يقنع كادي بذلك ربما لانه نفسه لم يستطع ان يقتنع به ، مع انه كان نوعا من اتخاذ الموقف يفي رغم تدميره لمثل كونتن بانقاذ شرف الكومبسون من عبث الاخرين . لكن التجربة تفشل « وتطلع وجهها للسماء وكانت خفيضة حتى كأن روائح الليل واصواته بدت محتشدة على الارض كانها تحت خيمة مسترخية وخاصة زهر العسل الذي وضعته في تنفسي كان على وجهها وحلقها كالدهان ودمها ينبض تحت يدي كنت انحني على ذراعي الاخرى .. ولهثت قبل ان اتنفس الهواء من زهر العسل ذاك .. » واذ ذاك ينتضي مديته ليذبحها . وتقترب الشفرة من حلق كادي المستلقية على العشب وعيناها عالقتان بالسماء ، ثم تسقط المدية على الارض . وتقول كادي « لا تبك . مسكين كونتن » ويعودان معا فيمران بالحفرة التي القيت فيها نانسي منذ اعوام ليريا عظامها : « انني افكر منذ زمن بعيد بان ارى عظامها ، هل فكرت انت » وتجيبه كادي ــ نقيضه التام اللامبالي ــ « لقد انجدلت مع العوسج الاسود والكرمة » ونعلم ان كونتن يفكر بالموت « اعتدت ان افكر بالموت كشخص ما مثل جدي..» ويحاول مرة اخرى ان يفتضها فيفشل ويعبق الجو بعد ذاك بالنداوة والرطوبة ورائحة المطر فيشي كل هذا بالوسيلة التي سيستخدمها كونتن ليموت . وفي نهاية المشهد تقول كادي له « لا تبك ، انني شريرة على اية حال ، ولا يمكنني التخلص من ذلك » ويرد كونتن « هناك لعنة علينا » .

اما قضية هربرت ريد فكانت بالنسبة لكونتن فاجعة اخرى ، ومن النوع الذي تثور عليه كل خلاياه . « ليس ذلك الثلاب كادي » يقول لها ، فتجيب « على ان اتزوج احدا ما ، علي » . هربرت ريد زكبي من الشمال غشاش نصاب متحلل على الطريقة الحديثة. رصيده الوحيد ثروته التي جمعها من مقامراته . وتلك معطيات يرفضها كونتن بالتاكيد . وهكذا ينذره بان يغادر البلدة والا قتله . ونرى للمرة الثانية ، ان كونتن يجد في الموت حلا : حاول ان يذبح اخته ونفسه ، وها هو يهدد هربرت بالقتل . ويعطيه هربرت مسدسا ، فيعجز عن ان يطلق النار . وبعدها يرحل الى هاربرد ، جامعة في (الشمال) ، وقد بيع مرعى أخيه ليدفع ثمنه في تلك الارض الغاصبة .

ويتكشف هكذا عالم كونتن الخاص ، عالم الشرف والطهر والشفقة والكبرياء والاستقامة والتضحية والنبل والمثل العليا ، التي تعطي لحياة الانسان ووجوده معنى يقي

عقله من التمزق . وكونتن في عالمه أمين كأحد القديسين . انه « ذلك النبي العلقم » والفروسية التي توجد في كل عصر عند الابرياء والابطال . واذا كان بنجي رمز التقبل العفوي للحياة فكونتن رمز اخلاقها وشهامتها وعنفوانها . وقصته بسبب من ذلك مليئة بالاصداء لان كل ما هو فيزيائي يتخذ عنده صيغة تجريدية . وعلى كل حادثة أن تنسجم مع عالمه مهما كانت فعالمه كعالم بنجي لا يتغير . انه ثابت أبدي متزن مطلق فوقي لا يتحدى .

الا أن هذا العالم الذي « ربما أتزن على أنف عجل بحر مدرب » والذي كان أقوى ما في كونتن ، كان أضعف ما فيه أيضا . ثمة شيء ما يحدث فيهز الابدية والثبات والمطلق . وتكشف الحياة لكونتن أن المطلق ليس في عالمه بل في التناقض ، وأن الثبات لا يمتلكه غير الزمن ، وأن الابدية صفة الفجيعة . انه منذ صباه يلمح عند كادي بذور التحلل المر الكامل من عالمه . وعندما يكبر تهز شرايينه علاقة دالتون ايمز بها . لقد تغير العالم ، البكارة افتضت ، والبراءة أضحت لاغية ، وأمسى كونتن روحا مضيعا عنيفا ورمزا للجيل الذي لا عالم له . وكان عجزه عن أن يكون شيئا بين رواقية أبيه وايمان دلزي يدفعه لان يقدم على « شيء فظيع » ، على الاقل ليثبت لنفسه أنه يوجد . وبعد شجاره مع هربرت على الجسر يدرك كونتن : « كأنني أنا الذي أتغير وليس الضوء » . وتنطرح المشكلة كلها على مستوى الانقاذ عن طريق الصلب : « هو وليس الله يستطيع بتلك الطريقة ان يقذف نفسه وأخته في الجحيم ، حيث يستطيع أن يحرسها الى الابد ويصونها الى ما بعد الابد بين النيران الخالدة » . وهكذا يحاول أن يقترف الزنا معها ، فيفشل . ويحاول أن يقنعها أنهما فعلا ذلك ، فيفشل ايضا . يحاول أن يقنع أباه ، فيفشل ثالثة . ويدرك حتى الثمالة أنه غير مستطيع شيئا : ليس فقط لان العالم الخارجي متناقض معه بل لأن عالمه الخاص بلغ في تناقضه مستوى التمزق . انه يتراوح بين رفض الزنا كجريمة خلقية وبين قبول اقترافه كحل : ليس لأبناء الشمال أن يفتضوا بكارة بنات الجنوب ، تلك البكارة التي يتجمع فيها معنى عالم كونتن بأجمعه . اما طبيعته التي رسبتها القرون فليست غير عجز محزن عن التطابق مع الفكر الذي اجتاح عالمه فأحرقه . ثمة شيء ما يتناقض ، يحتدم ، يتمزق ، ومن ثم ينفجع .

وتبرز فكرة الزمن بهدوء سادي ، وتطن دقات الساعة في أذن كونتن كأنها طبول انتصار ، ويتأكد من أن مرور الزمن المتواصل لا يعني غير ازدياد التناقض والعجز والفجيعة . ويصبح الزمن قدرا فكريا : « لكن ظل الوشاح بقي هناك وقد تعلمت منه أن اخبر عن الدقيقة » . « أن معركة ما لم تربح قط ، قال . حتى انها لم تحارب » . وينطلق كونتن من غرفته بميدان هارفرد في الثاني من حزيران عام ١٩١٠ وقد كسر ساعته غيظا فلم تكف عن التكتكة ، الى حانوت ساعاتي كي يعرف الوقت بالضبط فيطمئن الى انه سينتحر في تمام الثانية عشرة ليلا ، لكن ساعة واحدة لم تكن مضبوطة . ويسير الى الجسر ليعاين المكان الذي سينتحر منه ، فيلتقي بصبية ثلاثة يطلعوننا بمرارة على عالمه هو وهم يتحدثون « معا بأصوات ملحاحة متناقضة وضائقة الذرع جاعلين من اللاحقيقة امكانا ثم احتمالا ثم حقيقة باتة مثلما يفعل الناس عندما تتحول امانيهم الى كلمات » . ويتركهم فيلتقي بالفتاة الايطالية التي سرعان ما تجسد له هي الاخرى علاقته بالعالم : انه « الاخت » التي لا يستطيع أن يتفاهم معها ، ولا يعرف مأواها ، وهي التي يعرف فيما عدا كونتن نفسه — حتى الصبية الصغار السابحون في النهر انها تبيع جسدها ، وهي التي تسبب توقيفه عند مأمور الشرطة ، فكأن البراءة ممنوعة باسم القانون ، وغير معترف الا بنقيضها . وفيما هو يعود مع اصدقائه ينغمر في تذكر حاد لماضيه وتعبق في خياله رائحة زهر العسل وقد ادرك ان الشرف واللاشرف مفهومان دمرهما الزمن ، وان الاشياء لن تمر عبره ليقيمها . ويصبح زهر العسل « هو الارج الاشد حزنا على الاطلاق » و « يختلط زهر العسل في الموجودات كلها ويصبح رمزا لليل والقلق فأستلقي لا نائما ولا مستيقظا انظر الى ممر ينتشر فيه ضوء رمادي حيث امسى خيالا ووهما كل الاشياء الثابتة .. » ويبلغ التمزق حدا اقصى « فأنا أنا لن تكفي .. وأنا انت لا تؤمن بأنا أنا الجادة .. وهو أنا تعتقد انه يحسن بك ان تغدو الى كيمبردج .. وانا موقتة وهو احزن كلمة على الاطلاق .. » وينسحب كونتن من العالم وقد أيقن ان الموت خلاصه الوحيد ، منتحرا كأنه ذاهب الى طقس او شعيرة ، مثل مسيح لم يصلب لانه لم يكن ثمة ما يقدم له القربان .

— ٤ —

اذا كان امثال كونتن في هذا العالم ينتحرون ، واذا كانت المرأة عاهرة ، والمسيح مصاوبا مذ خلق وبلا فائدة ، فمن يا ترى يرث الارض ؟

بقي جيسن ، ودلزي : الاول كومبسن والثانية زنجية .
بقي جيسن الذي يتكلم دائما بصيغة الفعل المضارع : اقول وتقول ويقول . ويكاد القليل الذي نعرفه عن طفولته يشي بشخصيته التي قدمها فوكنر في القسم الثالث :

(.. بكى جيسن . كانت يداه في جيبه .
قال فرش : سيكون جيسن رجلا غنيا . انه يحتفظ بنقوده دائما . »
بكى جيسن) .

صدر حديثا :

رسائل مورقة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب

(كان جيسن يلعب ايضا ، ولكن لوحده . .) .
(قال فرش « لا يبدو عليكم انكم ابتللتم . لن يعرفوا ما لم اخبر انا او جيسن » . . .
قال كونتن « جيسن لن يخبر . هـــل تذكر القوس والسهم اللذين صنعتهما لك ، جيسن ؟ » .

قال جيسن « انه مكسور الان. »).

منطق جيسن اذن هو منطق البراجماتزم : نتائج العمل . والحالة الراهنة . وكل ما ليس ذا فائدة حاضرة عديم الاهمية عنده : انه مكسور الان . اما عالم كونتن فما ابعده عنه . واختلافه عن كادي يمثل اختلاف الباسكومب ـ اسرة امه ـ عن الكومبسن . وليس بوسع احد ان يفسر لم كان جيسن هكذا ، ذلك انه خلق هكذا . حتى اذا ما شب ، وصار بعد انتحار كونتن سند الاسرة الوحيد ، كان كل ما يثير اعصابه ان هذه العاهرة ـ كادي ـ قد ضيعت عليه وظيفة في المصرف ، وان مرعى بنجي قد بيع فلم ينتفع به ، وان ثمنه قد ضاع هدرا دون ان يستفيد ايضا . انه يحاقد ، الحياة تتآمر ضده باستمرار وتفسد عليه مشاريعه. وليس غريبا بعد ، ان يصيح في بداية فصله : « عاهرة مرة، عاهرة ابدا » . فهذا لا يرى في كادي غير اداة للحصول على الدولارات . ليس هذا فحسب ، انه ينظم علاقاتها بابنتها تنظيما منطقيا لا يناله القانون بحيث يستولي على الاموال التي ترسلها الام لتعول ابنتها الصغيرة . النقود همه الاول والاخير لا لانها غاية بذاتها بل لانها امان وقوة . ولذا فكل ما يسبب صرف نقوده عدو له: بنجي ، الزنوج ، كونتن الانثى ، حضور العرض ، تناول وجبة خارج البيت. وليس اسلوب المقايضة الذي يمنهج علاقاته كلها غير طبيعة اخرى تؤكد طبائعه الاولى . يستحيل تماما ان يعمل في مخزن ابرل اكثر او اقل من الوقت المتفق عليه . وهو يعطي (لورين) نقودا ومعاملة طيبة مقابل استمتاعه بها ، غير انه محظر عليها ان تتصل به هاتفيا او تبرق له . ذلك ان كل شيء يجري تبعا لحسابات دقيقة معينة . وليس لابة قضية ان تستهلك من قضية اخرى . الحسابات هي المثل الاعلى الذي ينتظم علاقات الناس كلها .

يشكل عمل جيسن اليومي حلقة اخرى من حلقات العصر الذي يعيش فيه : انه وكيل حسابات في مخزن ابرل ، وهو مضارب في بورصة القطن، يشتم اليهود باستمرار كافراد يستولون دونه على نقود الفلاحين . وحياته موزعة بين عمله ومضارباته بحيث لا تفسح المجال لتقبل منطق جديد . ان عالمه ثابت ، يؤدي اي تغيير فيه الى نسف اتزانه ، عالم مترابط كالآلة ، قيمة النقود والرباء الاجتماعي، والقبول بانعدام الحقيقة الفردية . وهو كعالم كونتن محكوم عليه بالزمن ، ذلك ان العصر الذي يمثله هو عصر القماءة. وليس الزمن الذي اتى على كونتن بعاجز عن ان يحيل جيسن الى صيغة سلوكية فيها كل ما لا يرغب امثال كونتن ان يوحد بهم . انه ، هو الاخر، شخصية مطروحة عبر الزمن. والزمن يصلبه باستمرار . ساعته مضبوطة دائما . ليس هذا فقط بل ان ساعة المحكمة امامه الى الابد ، حتى انه يدفع نقودا ضريبة اصلاحها كل عام . وهو يترقب ثانية فثانية تقارير بورصة القطن التي لا تسبب له غير الاثارة والنكد .

الا ان مزية مختلفة ، لا تقل ايلاما عن اية مزية اخرى، تخفق اون النار اللافحة في صدره : انها سادته . يكون جيسن في منتهى تلذذه عندما تحضر كونتن للمائدة قسرا فتجلس بناء على اوامره . ولا يقل هذا التلذذ عن ذاك الذي يظهر عشية السادس من ايار ١٩٢٨ عندما يعرض على لستر أن يبيعه بطاقة للعرض بخمسة بنسات ، ثم بنيكل ، وهو يعلم ان لستر لا يملك دانقا . وتبلغ اللذة اقصاها فيرمي البطاقتين في المدفأة لتحترقا.

جيسن رجل ذكي ، وهو ككل الاذكياء يعيش في جحيم ، حتى انه يشتق فعلا من نفس الكلمة لكثرة ما يستعملها . جحيمه خميرة فطرية معدة للانفجار كلما احتكت بالعالم الخارجي . انك لاتراه راضيا ابدا ، فهو يفهم ان كل شيء ضده ، ما دام كل شيء كومبسون ، حتى دلزي التي رصدت عدوة له منذ بدء الخليقة . ان كل تحد لمنطقه جحيم ، وهكذا فالله جحيم ، وربطة العامل الحمراء الذي تهرب معه كونتن جحيم ، وايمان دلزي الما زوشي بالرب الطيب جحيم ، وبلاهة بنجي جحيم ، ووجود الحمامات على سطح الكنيسة ، وكل ما له علاقة بيهود نيويورك مصاصي الاموال جحيم ايضا .

وليس الكومبسون تحديا فقط : انهم كل ما يكره . لكنهم الذين ينقذهم جيسن كومبسون عام ١٩٣٩ من العبيد، عندما يطرد دلزي من الخدمة وقد ماتت امه واستقر اخوه بنجي في مصح جاقسون واختفت كونتن الانثى بعد امها .

اذن ثمة عالمان : عالم جيسن الشرير ، وعالم دلزي بكل ما فيه من قدرية الايمان . وفيما يلهث جيسن ابدا وراء الدقيقة ، تمتلك دلزي كل الوقت الذي في الكون. لجيسن عالم اللعنة ، اما دلزي فلها عالم العبيد . ورمز الزنوج هنا لا يتأتى من كونهم عرقا بل نوعا من البدائية برفضه العصر الآلي . اما جيسن فهو الفرد الذي تآكلت فيه كل صفات الانسانية ، ونهض شكلا نخرا قوقعيا رمادي اللون معقود الجبين حتى كانه يعلن الساعة السادسة دائما . وتبلغ الأزمة عنده منتهى صخبها وعنفها عندما يستيقظ صباح ٨ نيسان فيكتشف ان كونتن قد سرقت نقوده ، ثم يلحق بها الى موتسن . وفي هذا الفصل تكاد تكون كل جملة رمزا او سمفونية خامسة لبيتهوفن : فهو ينتهي بحسرة وغيظ ، وشجار جبان يعلن نوع العلاقات الانسانية السائد كما يكشف عن تحد قدري ، وفيما تعلن دلزي بعد خروجها من القداس « لقد رايت الأول والآخر . لقد رايت البداية والنهاية » . يختتم جيسن الفصل بضربة للستر ، وضربة لزهرة بوق الملائكة . « وزمجر صوت بن وزمجر . . . » وما كأن كل شيء في الحياة الا صائح مع شيكسبير :

غدا وغدا وغدا
يزحف في هذا الفراغ الصعلوك من يوم ليوم
الى آخر مقطع من الزمن الموقوت
وكل اماسينا قد انارت الطريق للحمقى نحو الموت الاغبر
نايا نايا يا احتضار شمعة
الحياة محض ظل يمشي
لعبة ممثل مسكين يتشعوذ ويتأرجح ساعة على المسرح
ثم لا يسمع بعد
انها قصة رواها معتوه
ملأى بالصخب والعنف
ولا دلالة لها (١) .

دمشق — هاني الراهب

(١) هذه الدراسة مقدمة للترجمة العربية لرواية « الصخب والعنف » التي ترجمها الكاتب ، وستنشر قريبا .